الستراتيجية السوفيتية في الحرب الباردة

كاظم هاشم نعمة

يمكننا التعرف على موقف الاتحاد السوفياتي من العلاقات الدولية من ناحيتين، احداهما دراسة الايديولوجية الماركسية– اللينينية من جانب. او تتبع السياسة الفعلية للحكومة السوفيتية وردود فعلها في الازمات الدولية وثانيتها الجمع بين الايديولوجية والتطبيق، مع الانتباه الى الدوافع الظاهرية والخفية التي تحرك صانعي القرارات.

وأول سؤال يفرض نفسه هو: هل ان السياسة السوفيتية في الحرب الباردة تنطلق من مخطط ستراتيجي متكامل الابعاد او مجرد تفاعل مع الاحداث تكتيكياً ؟ ورغم ان العلاقة بين الستراتيجية والتكتيك متداخلة ومتبادلة ويصعب احياناً رسم حدود فاصلة وواضحة، فان الفكر الماركسي– اللينيني يؤكد بصراحة على ضرورة الاعتراف بتباين جوهر الستراتيجية من التكتيك فالستراتيجية تعالج الاوضاع الاساسية وتتعامل مع المقومات الرئيسة وما يحيطها مؤمنة بأن الثورة لا تقف عند مرحلة معينة بل متغيرة، لذا فانها تواكبها من حيث التكيف، لكنها تحافظ على جوهرها خلال مرحلة معينة من التطور في العلاقات الاجتماعية– الاقتصادية للمجتمع البشري الذي تتحكم فيه تناقضات معينة متناسقة ديالكتيكيا مع الاطار التاريخي للعلاقات الانسانية. وتختلف الستراتيجيةعن التكتيك من ناحية الهدف الذي تتوخاه. فبما ان الصراع بين القوى الاشتراكية وبين القوى البرجوازية الامبريالية ظاهرة حتمية تاريخاوجدليا، فالستراتيجيةتستهدف تحقيق الاطاحة التامة بالنظم الرأسمالية وبناء مجتمع اشتراكي.من هنا يتضح لنا ان افق الستراتيجية ارحب بكثير من التكتيكلانها تتعامل مع مستقبل بعيد تسير اليه التطورات. ومن الضروري، في

مثل هذه الحالة، ان يكون تصورنا الستراتيجي عاماً ومبنياً على اعتبارات لها اهميتها الجوهرية في الظاهرة رغم انها قد تكون خفية في فترة زمنية محددة. وهكذا، فالتكتيك هو الذي يعالج القضايا والتطورات في زمن محدود ترسم ابعاده شروط معينة وظروف قائمة، كمعيار القوة الفعلية والقوى التي تستخدمها وطبيعة اهدافها ومناهجها العملية ونظام افكارها وتصوراتها للواقع.

كتب ستالين في سنة ١٩٢٤ حول الستراتيجية بان « الستراتيجية تتعلق بالقوى الاساسية للثورة واحتياطاتها، وتتغير مع انتقال الثورة من مرحلة الى اخرى، لكنها تبقى غير متغيرة جوهرياً خلال مرحلة معينة... وبينما تستهدف الستراتيجية كسب الحرب ضد البرجوازية فالتكتيك يسعى وراء اهداف اقل اهمية، لان هدف التكتيك ليس النصر في الحرب كلياً، بل نصر في اشتباكات ومعارك معينة» «١».

وعندما نتفحص كيفية صيانة الستراتيجية السوفيتية نجد ان تشخيص القوة المضادة للدولة السوفيتية يأخذ قدراً كبيراً من الاعتبار، فالدولة السوفيتية تعتبر الكيان السياسي المنظم الاول للطبقة العاملة. وتاريخ النضال السياسي للطبقة العاملة لم يأخذ الثورة الاشتراكية طابعاً دولياً معترفاً به، بل اقتصر على الكفاح داخل الاطر القومية. وفي كلا الحالتين كان ولا يزال تجمع القوى الرأسمالية اقليمياً، والقوى الامبريالية اممياً العدو المباشر الذي تستهدف اطاحته الستراتيجية السوفيتية. واذا كان الصراع داخل الدولة القومية الواحدة تتحكم فيه اعتبارات تكتيكية لان طبيعة الظروف والعوامل المتداخلة ذات صبغة مرحلية معينة ومحدودة، فان الصراع منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الان ترسم ابعاده اعتبارات ستراتيجية عامة على رقعة جغرافية هائلة تتفاعل فيها عوامل متباينة ومتقلبة لا يمكن ادراكها بدون منهجية علمية.

«ان التكتيك يعني الخطة السياسية لفترة قصيرة تحددها ظروف معينة، بينما

(1) Josef Stalin, "The Foundation of Leninism", in Problems of Leninism, Moscow, Foreign Languages Publishing House, 1953, pp. 83 - 44 .

تعني الستراتيجية خطة لمرحلة تاريخية.... وعند انتقاء الخطة الستراتيجية للحزب خلال مرحلة الرأسمالية فمن الضروري تحديد الهدف الاساسي المعين للطبقة العاملة... وكذلك عدو الطبقة العاملة الرئيسي» «٢».

منذ قيام الدولة السوفيتية وهي معرضة لضغوط خارجية، بعد ان فشلت محاولات التدخل وتمرد الجيش الابيض، من جانب الدول الاوربية خلال فترة ما بين الحربين وكان على الاتحاد السوفياتي ان يجد لنفسه سياسة تضمن له البقاء والحفاظ على دولة العمال الفتية. ولم تكن عملية انتقاء هذه السياسة سهلة وفي ظروف ملائمة، فالاقتصاد السوفياتي كان يعاني من نكسة التحول من اقتصاد رأسمالي صناعي الى اقتصاد اشتراكي مما اضطر لينين ان يرجع خطوة الى الوراء ويتعايش سلمياً مع بقايا النظام الرأسمالي حتى تستطيع رواسي الاشتراكية تثبيت قدمها. ولم تقتصر سياسة التعايش على الساحة الاقتصادية، بل شملت علاقة الدولة السوفيتية، ذات النظام الغريب في العلاقات الدولية، مع بقية الدول الاوربية الاخرى. وقد اكد ستالين على فكرة التعايش السلمي لاعتبارات محلية وعالمية. فبعد ان تبنى سياسة الاشتراكية في قطر واحد على خلاف رأي تروتسكي، وكان من الضروري في مثل هذه الحالة حشد جميع القوى لتحقيق الهدف فأنه من الافضل للدولة السوفيتية ان تتجنب الدخول في صراع مكشوف مع النظم الرأسمالية. وبذلك استطاع ستالين ان يستخدم التفسيرات الماركسية— اللينينية لتبرير موقفه مما يدفع للاعتقاد بان العقيدة كانت تجر اذيالها وراء السياسة الفعلية وتلفها بغطاء تبريري كلما دعت الحاجة لذلك. فالدولة السوفيتية لم تكن تناضل من موقع القوة في صراعها مع الدول الرأسمالية الاخرى، بل هي كانت في وضع يعرضها الى تكالب شرس أئتلافي رأسمالي ومع ذلك فالطوق الانعزالي الذي احاط الاتحاد السوفياتي حتى عام ١٩٣٥ كانت له اسبابه. فالعصبة لم تكن في نظر الحكومة السوفيتية

(2) Otto. C.Kuusinen ed., "Fundamentals of Marxism-Leninism", Moscow, Foreign Language Publishing House, 1961, pp. 424 - 425 .

سوى «مأوى لصوص» وتجمع نظم برجوازية تعاني من التناقضات مع ما قد يؤدي بها الى حرب جديدة كالتي شهدتها عام ١٩١٤ وتحاول ان تخلص اوربا منها عن طريق العصبة. وان الاتحاد السوفياتي لم يمتلك من القوة الفعلية ما يمنحه غطاء دفاعياً ضد هجوم اوربي ولا بد ان نذكر بأن السياسة السوفيتية لم تغفل عن ما يجد في اوربا سعياً وراء تراتيب دولية لصيانة الامن والسلم الاوربي وحاولت ان تساهم قدر الامكان في تهيئة الجو الاوربي، ولم تكن تلك السياسة ايجابية الا بعد ان تعاظم الخطر النازي بتولي هتلر الرئاسة .

ومن المفروض بالاتحاد السوفياتي ان يعمل في التناقضات داخل المعسكر الامبريالي "لا ان المتطلبات الفعلية لم تكن الى جانب هذه السياسة المقيدة بالخطوط العقائدية العريضة . واذا كان الاتحاد السوفياتي عاجزاً عن القضاء على النظم الراسمالية فانة يجب ان يمنع هذه الدول من هدم النظام الاشتراكي بصورة مباشرة او غير مباشرة«فواجبنا الانتباه للتناقضات داخل المعسكر الرأسمالي . ولتأجيل الحرب بالتفاهم مع الرأسمالية واتخاذ الخطوات للحفاظ على علاقات سليمة . ان علاقتنا مع الاقطار الرأسمالية مبنية على افتراض بان تعايش النظامين المتضاربين ممكن، والواقع يؤكد ذلك»«٣» .

لقد اثبتت الحرب العالمية الثانية ان الدولة الاشتراكية ولدت لتبقى ولديها من مقومات الحفاظ على كيانها ويهدد بقاء النظم الرأسمالية . ولاشك ان القادة السوفيت يدركون بثقة بانهم يتعاملون مع عدو قوي مسلح باسلحة نووية ولا يمتنع من استخدامها حتى ولو على حساب البشرية ككل ، لذلك فمن الضروري التوفيق بين المتطلبات الايديولوجية والتطورات الجذرية في العلاقات الدولية ، وبالتالي اتباع سياسة ستراتيجية ـ تكتيكية ، تخدم مصلحة الاشتراكية ، مبنية على تحليل علمي يحتضن ابعاد الظواهر الدنميكية بصورة

(3) Josef Stalin, "Political Report of the Central Committee to the 15th Congress of the CPSU, December, 1927, Moscow Foreign Publishing House, 1950,p . 27.

صحيحة . واولى هذه الحقائق هي ان المرحلة الراهنة للعلاقات الدولية تشهد تعامل نظامين متناقضين وانتقالا من الرأسمالية الى الاشتراكية . ويقود فيه الاتحاد السوفياتي معسكرا اشتراكيا له من القوة ماتكفي للدفاع عن نفسه ضد السياسة الامريكية الغربية المتمثلة بالاحتواء او الهجوم المضاد الشامل الاتوماتيكي ضد اى تحرك سوفيتي في منطقة من نفوذ الدول الغربية . ومن هذا المنطلق اتخذت سياسة التعايش السلمي كوسيلة يمكن مواجهة الغرب فيها وتحقيق الاهداف العامة «لاتعتبر سياسة التعايش السلمي مناورة تكتيكية مصممة لحقبة قصيرة من الزمن ، بل الخطة الستراتيجية لطول فترة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية على النطاق الدولي » «٤» .

واذا كانت سياسة التعايش السلمي قد نظر اليها من جانب الانكماش طيلة فترة مابين الحربين ، فان التطورات الجوهرية في العلاقات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية دفعت بالسوفيت الى كسر طوق الرأسمالية الذي فرض على المعسكر الشرقي حتى منتصف الخمسينات . ومن جملة التطورات الثورة التكنولوجية التي شملت الاسلحة ووسائل قذفها وقابليتها التدميرية . فبعد ان تمتعت الولايات المتحدة الامريكية بفترة احتكار نووى هددت فيه الاتحاد السوفياتي ولجأت الى ستراتيجية الاحتواء والرد الشامل واجهت في الخمسينات قوة اشتراكية نووية تتمتع بكل ماتمنحه الاسلحة التدميرية النووية من مزايا القوة والتهديد . ثم ان القيادة السوفيتية بعد وفاة ستالين ارادت ان تنفتح على العالم الخارجي وتساهم في العلاقات الدولية من موقع القوة . ولكن علينا ان نؤكد بأن الاتحاد السوفياتي كان امام مفترق طرق من ناحية النظر الايديولوجية للحرب والسلم .

فالنصوص الماركسية — اللينينية تؤكد بشكل او اخر ان الحرب شكل من الصراع بين الطبقة العاملة والمجتمع الاشتراكي من جهة وبين البرجوازية والمجتمع الرأسمالي ، وقد تفسر ستراتيجية التعايش السلمي على اعتبار رفضها

(4) For The Unity and Solidarity of The International Movement, Pravda, December 6, 1963.

للحرب او تغييبها عن المجتمع الدولي . لكن هذا التفسير يسلب الماركسية — اللينينية من اهم ركن فيها : الصراع الطبقي . وقد حاول الغربيون تجميد الحرب في مفهوم التعايش السلمي . بيد ان الواقع هو أن التعايش السلمي لا يعتبر مرحلة تخفيف سرعة اوحدة التنافس ولا حتى هدنة «هناك من يحاول تذويب فكرة التعايش السلمي لتعني رفض الحرب . لكن السلام والتعايش السلمي ليس نفس المعنى . فالتعايش السلمي لا يعني هدنة مؤقتة ومستقرة بين حربين ، بل شيئاً اخر اكثر تعقيدا» «٥» . ومع ذلك تبقى مشكلة تحديد طبيعة الحرب التي تغيب في اطار ستراتيجية التعايش السلمي ، هل هي حرب محدودة تقليدية أو حرب نووية عامة؟ يبدو ان الاتحاد السوفياتي يدرك خطورة خوض حرب نووية عامة ويعتقد بان الدول الرأسمالية قد تزج بالعالم الى حرب عالمية ثالثة . لذلك فمن ضرورة الوقت الراهن حرمان الغرب من هذه السياسة وذلك بفضل القوة السوفيتية النووية . «ان جوهر سياسة التعايش السلمي للانظمة المختلفة يكمن بالذات في اجبار الدول الكبرى على رفض الحرب كوسيلة في سياستها» «٦» .

وهنا تثار مسألة ايجاد الحلول الحاسمة للمشاكل الدولية وللخلافات بين الشرق والغرب ، فاذا كانت سياسة التعايش السلمي لا تجند الحرب كوسيلة فهل يمكن اللجوء الى المنظمة الدولية او الى اتفاقات ثنائية بين العملاقين او الى مؤتمرات دولية لوضع نهاية للصراع ؟ ان الاخذ بهذه الفكرة معناه تنازل السوفيت عن الفكر الماركسي — اللينني وتحبيذهم فكرة التوفيق التي طالما نادى بها الغربيون وبالتالي السير مع الاستعمار ومع الاستغلال «ان التعايش السلمي لا يمت بصلة «للتوفيق» مع الاستعمار . وكونه شكلا من كفاح الطبقة العاملة فانه موجه نحو تسهيل التطور الاجتماعي وتعجيل الانهيار الحتمي للاستعمار

---

(5) H. Dona, "Peaceful Coexistence: A Basic Principle of the Foreign Plicy of the Rumanian Peoples Republic", Bucharst State Publishing House, 1963, p.2

(6) N.S. Khruschehov, "Message to the 19th International Conference in Hiroshima. 1963 .

نتيجة لهزيمته في الصراع الاقتصادي مع الاشتراكية . . . ان التعايش السلمي بالذات يخلق الشروط الملائمة للكفاح ضد الاستعمار في جميع اشكاله» «٧» . ومن هذه الشروط هي ان قوى النظام الاشتراكي تمنع الاستعماريين والكولونياليين من استغلال القدرة العسكرية في تمرير مصالحهم وذلك برفض السوفيت للحرب وتأييدهم للحركات التحررية في العالم الثالث فكفاح الشعوب المستعمرة ضد الامبرياليين ونيل الاستقلال يشكل حلقة مكملة للمرحلة الراهنة في التحول من الرأسمالية الى الاشتراكية ، وان من اهداف ستراتيجية التعايش السلمي تصعيد نضال الشعوب من اجل التحرر . فمن مهمات المعسكر الاشتراكي تسهيل عملية كفاح الشعوب المتطلعة للحرية والاستقلال وذلك بمدها بالمعونات العسكرية ومنحها التأييد السياسي والمعنوي في المحافل الدولية «ان التعايش السلمي يخلق الظروف الملائمة لكفاح الشعوب المستعمرة ضد المستعمرين . والتعايش السلمي يعني اقصى التأييد للشعوب المظلومة ومن ضمنها امدادهم بالسلاح» «٨» .

ان من اهداف المعسكر الاشتراكي هزيمة النظام الرأسمالي . وبدون شك ان مشكلة كيفية تحقيق ذلك تستدعي البحث . فاذا كان النظام الرأسمالي عنيدا في مواقفه ومغامرا لدرجة الحرب العامة فما عسى الاتحاد السوفيتي ان يفعل ؟ فهل من الممكن التلاحم في الاهداف المتباينة لكلا النظامين المتضادين؟ وهل يمكن تنازل احد الاطراف عن مصالحه ، او ان يبدل اساليب سلوكه ؟ الاجابة على هذه الاسئلة تتطلب منا اولا التأكيد على أن ستراتيجية التعايش السلمي في نظر السوفيت لا تعني زوال الصراع الطبقي والتباين العقائدي كما يحلو لبعض الكتاب الرأسماليين ان يتصوروا القضية «كثير من الغربيين الذين يأخذون بفكرة التعايش السلمي بين الرأسمالية والاشتراكية يفسرونها بشكل

---

(7) D.Y. Melinkov, "Coexistence and the Struggle Against Imperialism, International Affairs, Moscow, August, 1963, P. 23.

(8) K. Oesterling and N. Freed, "Peace, Freedom and You", 1963, p. 15.

مخالف للموقف الماركسي . . . ويعطون تفسيرات عديدة لبعض المسائل كالعلاقة بين التعايش السلمي وتطور التناقضات الاجتماعية داخل المعسكر الرأسمالي ، وبين حركة السلام وكفاح الطبقة العاملة من اجل الاشتراكية . ومن الايديولوجيين الرأسماليين من يفسر التعايش السلمي كتوفيق بين الطبقتين المتطاحنتين ، البروليتارية والبرجوازية وبالتالي الى تلاشي الصراع في ايديولوجية الطبقتين المتناحرتين ، الاشتراكية والبرجوازية . اننا ننطلق من افتراض بأن التعايش السلمي بين النظامين لا يستثني ، بل على العكس ، يشمل تطورا في صراع الطبقة العاملة» «٩» . وبما ان ايديولوجية المعسكرين مختلفتان جوهريا فان التعايش السلمي لا يمت بصلة الى اهدافهما التي ترسمها الايديولوجية . وقد تذمر القادة السوفيت من موقف المسئولين الغربيين الذين يرفضون فهم التعايش السلمي بانه لا يشمل الايديولوجية «في الغرب لا لا يريدون : او على الاقل لا يتظاهرون بأنهم لا يريدون فهم التعايش السلمي بين الدول المختلفة الانظمة الاجتماعية لا يعني التعايش السلمي في الايديولوجية نحن لم نكن نقبل ولا نقبل فكرة التعايش السلمي ايديولوجيا . فلا يمكن التوفيق هنا» «١٠» . اذا هل سيكسب المعسكر الاشتراكي حربه الباردة مع الدول الرأسمالية الاستعمارية خاصة وان الاتحاد السوفياتي اكد اكثر من مرة ، كما في احداث كوبا ، «بانه لا يرغب في الحرب ضد اى كان . فنحن لا نحتاج الى اراضي الاخرين ، ولا ثرواتهم » «١١» .

والجواب : نعم . ويمكننا اثبات ذلك من خلال موقف المسئولين السوفيت ورأى الكتاب . ان النظرية العسكرية السوفيتية تؤمن بحتمية النصر لقواها لانها تخوض حربا عادلة ضد حرب غير عادلة يشعلها الاستعماريون «وان حربا عالمية بين المعسكر الاشتراكي والاستعمارى ستكون حربا عدوانية وغير عادلة من جانب الاستعمار . لكنها حرب تحرير وعادلة وحرب ثورة من جهة

(9) T.T. Timofeyev, "Aganist Distortion of the Class Nature of the Leninst Policy of Peaceful Coexistence", International affairs, Moscow, 1963, pp. 18 -19 .

(10) N. S. Khruschohov, "Current Soviet Documents, 1963, pp. 18.

(11) N. S. Khruschehov, "Speech of August, 1961 .

المعسكر الاشتراكي»«١٢» وتؤكد هذه النظرية الأسس الماركسية ـ اللينينية التي تهتدى بها ستراتيجية الاتحاد السوفياتي في الحرب الباردة «بتطويره للنظرية الماركسية في الحرب والجيش وضع لنين في مؤلفاته الاسس التي يستند اليها الفكر السوفياتي العسكري . وأهمها الفرضية القائلة بان الحرب امتداد للسياسة بواسطة القوة . وسهلت هذه النظرية اكتشاف محتوى الحرب من خلال الاهداف التي تخدمها ودور الحرب في المجتمع واستنبط من ذلك مفهوم الحرب العادلة وغير العادلة» «١٣» .

ويعتبر المعسكر الاشتراكي التعايش السلمي نمطا من العلائق مع الدول الاستعمارية التي سيخذلها التاريخ على يد القوى الاشتراكية والدول المحبة للسلام . وان قوة محركة للتطور الثقافي والاجتماعي والسياسي في جميع انحاء العالم بحيث يدفع بالنظم الرأسمالية الى الانكماش والذوبان . وان وضعية حالة التعايش السلمي لا يمكن « ان تعني غياب الحرب وتتنفس الصعداء بين هجومين ، كلا . ان التعايش السلمي السياسة الايجابية والبناء التي تبعث التقدم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي » «١٤» . ثم ان يقين القيادة السوفيتية في كسب المعركة يبدو جوهريا ، خاصة بعد وصول العلاقات الدولية في ظل السلاح النووى الى حالة التعادل «ليس بوسعنا سوى اليقين بتو جد نظامين ، وان نزاعا بينهما يدور . والمعركة معركة حياة او موت ، لكننا نرغب في النصر باقل خسارة . وليس هناك من شك في انتصارنا» «١٥» . وحتى اذا تأخر النصر ، فان العامل الزمني الى جانب الاشتراكية «الاشتراكية والسلام وحدة لا تتجزأ . . . . وفي مناخ التعايش السلمي فان عامل الزمن الى جانب الاشتراكية . ولهذا يرعب الايديولوجيون الغربيون من مفهوم

---

(12) Marshal C.D. Sokolovsky, "Military Strategy", p. 178.
(13) N. A. Lomov, "Soviet Military Doctrine, Moscow, 1963, p.5.
(14) I. Glagolev and C. Larinov, "Soviet Defence Mifgt and Peaceful Coexistence", International Affairs, Moscow, November, 1963, p. 33.
(15) N. S. Khruschehov, "Current Soviet Document", 1963.

التعايش السلمي» «١٦» .

ومهما تحاول قوى الامبريالية تمويع الصراع وزجه في زوايا ثانوية متناسية طبيعة الخلافات الجوهرية ومتخطية الحقيقة التاريخية ، فان الفكر السوفياتي يؤمن بامتناع تلاقي جرفي النهر في نقطة ما . ويأتي الرفض بعد المحاولات التي تجري في الفكر البرجوازي لبناء جسور بين العقيدتين متخذة من تشابه النمو التكنولوجي وبروز التكنوقراطية التي يعاني منها المجتمع المتصنع فوق العادة . «ان الايديولوجية البرجوازية مبنية على حقد الانسان والخداع لذلك لانستطيع التوفيق مع البرجوازية ، وللسبب نفسه نتكلم لغة تختلف ولن نجد لغة عامة مطلقا » «١٧» . ولاشك ان الدولتين العملاقتين تتجهان في مجالات متقاربة لدرء اخطار التطورات الهائلة في التكنولوجية ولتقييد جوانبها السلبية باللجوء الى اجراءات متفق عليها دوليا . ويمكن اعتبار هذه المحاولات بداية الطريق نحو رقابة دولية وسلطة عالمية تشرف على بعض النشاطات وبالتالي تبديل الحرب الباردة بالتعاون . لكن بالنسبة للسوفيت تبقى هذه اللقاآت مرحلية ولا تتعرض لجوهر الحقائق التي تحكم طبيعة العلائق بين النظامين «فان المفهوم التفائلي بالتقاء الرأسمالية مع الاشتراكية على صعيد واحد ماهو الاطوبائية من اولها الى اخرها . وسيأتي الوقت الذي تكون فيه حكومة عالمية ، لكنها حكومة المجتمع الاشتراكي» «١٨» .

---

(16) U. P. Kalygin, "The Magnetic Force of hte Leninist Ideas of Peaceful Coexistence" 'Internaional Affairs, Moscow, November. 1963, p. 24.

(17) A. Solodovniko, "Speaking Different Languages", International Affairs, Moscow, November, 1963, p. 53.

«١٨» نفس المصدر السابق ، ص ٤٨ .